عبادةُ السِّر

أسمـــاء

أسنّـة الضيـاء

بسم الله الرحمن الرحيم

عبادةُ السِّر

أسماء

الفهرس

مقدمة ٥

تحتَ مِجهر الشّرع ٦

مقاصدُها العظيمةُ ١٢

حَصْرُ الصّيام في الجوع! ١٤

"بعد المغرب" ١٩

الاستعداد الحقيقيّ لرمضان ٢٤

توبةُ رمضانيّة! ٢٦

ليالي رمضان وصلاة التراويح ٣٠

سرُ الاقترانِ بين رمضانَ والقرآنِ ٣٥

العشر الأواخر والجوهرة المكنونة ٣٨

الختام ٤١

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، المطلع على السرّ وأخفى، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، والصلاة والسلام على من ربّى الأمة على صدق الإخلاص، وربط القلوب بربها في الخلوات قبل الجلوات، نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين. أما بعد،

فإن من أجلِّ مقامات العبودية وأدقِّها مسلكًا، وأعظمِها أثرًا، عبادةُ السِّر؛ تلك العبادة التي لا يراها الناس، ولا تُطلب لها شهادة إعجاب، ولا تُنتظر عليها كلمة ثناء، وإنما تكون خالصةً بين العبد وربه، حيث تنكشف حقيقة الإيمان، ويُختبر صدق المحبة، وتُوزن النيات بميزان السماء لا بميزان البشر.

يأتي هذا الجمع لمقالات الكاتبة أسماء، من كتيبة أسنة الضياء بعنوان "عبادة السر"، ليعيد تسليط الضوء على هذه الزاوية المهمة من حياتنا التعبدية؛ ليذكّرنا أن للروح محرابًا لا يدخله أحد سواها، وأن العبادة إخلاصٌ ومتابعةٌ في تلازم لا يجوز الإخلال بهما.

تخط أسماء في هذه السطور، كلمات نابضة، تحاول أن تفتح للقارئ باب المراجعة الصادقة، وأن توقظ فيه شوقًا لعبادةٍ لا يداخلها رياء، ولا يفسدها طلبُ نظر الخلق.

نسأل الله تعالى أن يجعل ما كتبته الكاتبة، زادًا نافعًا، وأن يبارك في جهدها وسعيها، وأن يجعل أعمالنا كلها خالصةً لوجهه الكريم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ليلى حمدان

تحتَ مِجهرِ الشّرع

إنّ كلَّ عبادةٍ من العباداتِ التي نتعبدُ بها ونتقربُ بها إلى اللهِ لها أسرار ومعانٍ عظيمة، والوقوف عندها وتأملها يُبرز الحكمةَ من مشروعيتها، ومن هذه العبادات الصّيام؛ عبادة جليلة.

أولا: ما هو الصيام؟

- والصّيام لغة: هو الإمساك والترك والكفُ عن الشيء.
- وإصطلاحا: هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس مع النية.

وهو نوعان:

- واجب؛ مثل صوم رمضان، حيث قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة: ١٨٣) و أضاف جل في علاه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(البقرة: ١٨٥) فهو فرضُ عينٍ، وهو الركن الرابع من أركان الإسلام.

بالإضافة إلى الكفارات والنذور.

- مستحب؛ كصوم يوم عرفة لغير الحاج، عاشوراء وغيرها...

أما شروط وجوب الصيام:

- الإسلام.
- البلوغ.
- العقل.
- القدرة.
- الإقامة (غير مسافر).

ثانيا: شروط صحة الصيام

لا يصح الصيام إلا بـ:

النية (محلها القلب، وتُبيَّت لرمضان).

- الإمساك عن المفطراتِ.
- الزّمان المعتبر (من الفجر إلى المغرب).

ثالثا: أركان الصيام

- النيّة.
- الإمساك عن المفطرات.

رابعا: المفطرات (ما يُبطل الصيام)

المفطرات المتفق عليها:

- الأكل والشرب عمدًا.
- الجماع.
- إنزال المني عمدًا بشهوة.
- القيء عمدًا.
- الحيض والنّفاس.
- الرّدة (نسأل الله العافية).

ما لا يفطر:

- الأكل أو الشّرب نسيانًا.
- الاحتلام.
- المضمضة والاستنشاق دون مبالغة.
- السّواك.
- ما دخل بغير قصد.

خامسا: ما يفسد الصيام ويوجب القضاء فقط:

- الأكل أو الشّرب عمدًا.
- القيء عمدًا.
- الحيض والنّفاس.

القضاء: صيام يوم مكانه بعد رمضان.

سادسا: ما يفسد الصيام ويوجب القضاء والكفارة:

الجماع في نهار رمضان عمدًا وكفارته مغلظة؛ وهو ماورد في حديث عن أبي هريرة ﷺ

قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: هلكتُ يا رسولَ الله!

قال: «وما أهلكك؟»

قال: واقعتُ امرأتي وأنا صائم.

فقال رسولُ الله ﷺ:

«هل تجدُ رقبةً تعتقُها؟»

قال: لا.

قال: «فهل تستطيعُ أن تصومَ شهرينِ متتابعين؟»

قال: لا.

قال: «فهل تجدُ إطعامَ ستينَ مسكينًا؟»

قال: لا.

قال: فمكثَ النبيُّ ﷺ، فبينما نحنُ على ذلك أُتيَ النبيُّ ﷺ بعَرَقٍ فيه تمر،

فقال: «أين السائل؟»

قال: أنا.

قال: «خذْ هذا فتصدّقْ به».

والكفّارة مرتّبة لا مخيّرة:

- عتق رقبة (متعذر اليوم)
- صيام شهرين متتابعين
- إطعام ٦٠ مسكينًا

ولا يجوز الانتقال إلا عند العجز.

أما المرأة فإن كانت مُكرهة؛ فلا كفّارة عليها.

وإن كانت مُطاوعة فعليها ماعلى الرجل.

سابعا: الرّخص في الصّيام:

- يُفطِر ويقضي:

المريض مرضًا يُرجى شفاؤه.

المسافر.

- يُفطر ويُطعم:

الشّيخ الكبير.

المريض مرضًا مزمنًا.

- المرأة:

الحائض والنفساء: تفطر وتقضي.

الحامل والمرضع: تفطر إن خافت على نفسها أو ولدِها (وقد اختلف في ذلك بين القضاء والإطعام).

ثامنا: مستحبات الصّيام:

- السحور.
- تعجيل الفطر.
- الدعاءُ عندَ الفطر.
- الإكثار من الذكر والقرآن.
- كفُّ اللسانِ والجوارِح.

تاسعا: مكروهات الصّيام:

- المبالغةُ في المضمضة.
- كَثرةُ اللغو والجدال.
- تتبع الشّهوات بالنظر والكلام.

وهذا هو الصّيامُ وبعض متعلَقاته في الشّرع الحنيف. فاللّهم بلّغنا رمضان بلوغَ توفيق،

وأعنّا فيه على إحسانِ الصّيام والقيام،

واجعلنا من المقبولين فيه لا المحرومين،

واكتب لنا فيه سبقًا إلى رضاكَ ومغفرتِك.

مقاصدُها العظيمةُ

إنّ التدبرَ في الآيةِ التي يُستدَلُ بها على فرضية الصّيام (رمضان) يُبرزُ مقصداً عظيماً لحكمةِ مشروعيّةِ هذه العبادة، حيث يقول الله جلَّ في علاه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ خَتم الآيةَ بقوله لعلكم تتقون..التّقوى!

–التّقوى هي جنّةُ الروحِ، وصرحُ الأمانِ الداخليّ، وحِصنُ القلبِ ضد الضّلالِ والفتن. وأثناء الصيام يأخذُ القلب والنّفس في رحلةِ تصفيةِ الدّاخل، وضبط الشّهوات، وتهذيب الرّغبات. فيه يُجرّب المؤمن مرارةَ الحرمان من الطّعام والشّراب والهوى، لكنّه يكتشف حلاوةَ القربِ من الله، وعُمقَ السيطرة على النّفسِ، وسِحرَ الانسجامِ بين الرّوحِ والجسد.

- الصّومُ وِجَاء؛ ورد عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ ﷺ، قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ شَبَابٌ لا نَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، فَقَالَ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، عَلَيْكُمْ بِالْبَاءِةِ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ.» (رواه البخاري ومسلم) فيكسرُ سلطانَ الشّهوةِ ويهذبُها ويعيدُها إلى ميزانِها، ويحررُ العبدَ من عبوديةِ اللّذةِ الفانية الزائلة إلى عبوديةِ الله سبحانه وترقى في مقاماتها الجليلةِ.
- شهرٌ الصّبر؛ هكذا كانَ يُسمّيه بعضُ السلفِ، فاجتمع فيه صبرٌ على الطّاعةِ وصبرٌ على المعصيةِ وصبر على الشّهوة، وهنا عبقريّةُ عبادةُ الصّيام.

- إلّا الصّيام فإنه لي؛ قال الرسولﷺ في الحديث القدسي:

«كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» (متفق عليه) حيث نسبَه اللهُ تعالى إليه، فالصلاة تُرى، الزكاة تُشهد والحج يُعلن إلا الصّيام لا يَشهده إلا الله وهنا تتجلى معاني الإخلاص والصدق.

- رمضانُ والقرآن؛ يتجلى سرُ الاقترانِ في أنّه أثناء الصيام يُفرغ القلبُ ويخلى من كل الشّهوات ويُطهر من كل شيء ليُملأ بكلام الله سبحانه ويُحلى به، فهو غذاءُ الروحِ وزادُها ويزيد من خضوعِ وذلِ العبدِ لله وعليه تزدادُ القربات.

الصّيام؛ ميدانُ الإخلاصِ والصدق، لباسُ التّقوى ووسيلةٌ للتّرقي في مقاماتِ العبودية، فيه يخلى القلب من ما سوى الله ويستعدّ لِتلَقي كلامه عزَ وجل والغوص في معانيه.

حَصْرُ الصّيام في الجوع!

إذا تأملنا في عبادةِ الصّيام ومقاصدِها العظيمةِ والجليلةِ، يتبادرُ إلينا سؤالٌ؛ هل يُعقلُ أن يتحققَ هذا بمجردِ الابتعادِ عن المفطراتِ، وإحساسِنا بالجوع والعطشِ فقط؟

هل نُحقق التّقوى ونترقّى في مقاماتِ العبوديّة ونحيا بالقرآنِ لمجردِ أنّنا تركنا شهوةَ البطنِ والفرج؟

الحقيقةَ هي أنّ الصومَ أنواعٌ ودرجاتٌ، لايبخل على نفسِه في بلوغِها إلا جاهل أَسَرَته شهواتُه وحجبته عن جنّةِ الصّومِ، وأعماه بريقُ اللّذة عن رؤية نور هذه العبادةِ الجليلة، وأغرقته فما عاد يبصرُ شاطئَ النّجاةِ والتحرر منها ولايسعى إلى فطامِ النّفس عما أُلِفَت من الهوى. وهذه الأنواع هي؛

- صوم العُموم: كفّ البطن والفرج عن شهواتهما من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النيّة. وماسُمي كذلك إلا لأنّه حقاً كذلك. فهو صومُ أغلب العباد، ورغم أنّهم في أدنى درجةٍ إلّا أنّ أغلبهم يجدون فيه شقاءً وصعوبةً ولا يتعدى صيامهم الجسدَ بل لايتعدى البطن والفرج.

- صوم الخصوص: كفّ الجوارح كلّها عن الآثام، مع صيام البطن والفرج.

صوم الصالحين! عند التدبر نجد أنّ هناك قيد أُضيف وقيد حُذف؛ أما القيد المضاف فهو "كفّ الجوارح كلّها عن الآثام" قيد تَكمُن فيه حرّية الجوارح من عبوديّةِ الشّهوات

والعادات الذميمةِ وأَسرِ الذنوب والمعاصي إلى عبوديّة الله وبذلها فيما يحب ويرضى – سبحانه جل في علاه–

أما القيد المحذوف؛ "من طلوع الفجر إلى غروب الشمس" وماحَذف هذا القيد إلا إطلاق التقييد وليس العكس! فالأصل هو تحريم المعاصي والمنكرات دائماً وليسَ في رمضانَ فقط أو من الفجر إلى المغرب. فلا يذكر الوقت فنحن بصَدد الحديث عن حقيقة العبادة ومقاصدها لا صحّتها فالصّيام فقهًا: إمساك مخصوص في وقت مخصوص.

أما من أدرك الصيام حقيقةً: فهو إمساك النّفس عن الهوى وفطامها عن اللّذات الزائلة.

والجوارح لاتصوم أو تستصعب ذلك إلا إذا صامَ سلطانها وحاكُمها الذي هو القلب، فمتى ماصام القلب عن الحرامِ وترفّع عن كثير المباحات وسفاسف الأمور وأدناها صامت الجوارح تباعاً وسارت على خطى ملِكها وخشعت لخشوعه وافتقرت لافتقاره. والذي فَهِم العبودية يدرك هذا، فالأصل في الإصلاح أن يبدأَ من القلبِ ويبذلَ فيه وسعه، فيجدَ الجوارحَ تنقادُ لأوامرِ سيدها وتتعطش للتعبد لله –سبحانه–والخضوع له، وهنا تأتي درجة الصّوم الثالثة، أعلاهم!

- صوم خصوص الخصوص: وهو صومُ القلب عن الالتفاتِ إلى غير الله – سبحانه–، وتفرغه التّام له سبحانه. صومُ الأنبياءِ –عليهم السلام– ومن تَبعهم بإحسانٍ من الصديقين والمقربين، وهنا تُحقق كمال العبودية لله –عزوجل–.

"صومُ القلب" حَجْبُه عن الحرامِ، وليتمّ هذا لابد من أن تُحكِمَ غَلقَ بواباتِه، وأكبرها وأعظمها أثراً فيه النّظر، فمتى ماأُطلق على الحرام وماتُملي عليه النّفس من الهوى والرّغبات اللامتناهية، سار القلب وتَتبع خطواتِ الشيطان وقد ينتهي به الأمر عند كبيرة من الكبائر–عافانا الله وإيّاكم– وسَمِعت الجوارح سمعاً لامشاورة فيه وأطاعت أمر سلطانها. فيقسو القلب ويتصحّر الجسد، ويغدو كالظمآنِ يبحث عمّا أو من يرويه، وبدلٌ من الإقبالِ على المنبع الحقيقيّ العذب الصافي، يدبرُ عنه ويسوقه الشيطان إلى سرابٍ بِقِيعَة فيحسبه القلبُ الظمآن وغير المبصر ماءً، فيلهث إليه ويجري جري الوحوشِ في البريّة، فمإن يأتيه حتى يدركَ أنّه لاشيء بميزانِ الحق، وأنّه أضاع الخُطى ويكاد ينقطع نفَسه، بل وقسى قلبه!

"الالتفات إلى غير الله" فالأصلُ في الملتفت أنّه لايصل، خاصة مع الإكثار..

لايلتفت لخواطر السّوء والرّياء، ولا للخوض في كل صغيرة وكبيرة،ولا الدّنيا وزخرفها، ولا للتعلق بأيّ شيء سوى الله وحده –جل في علاه– مقبل على ربه إقبال أصحاب الدنيا على دنياهم بل وأعظم!

ومرةً أخرى لم يذكر الزمن، لأن هذا النوع من الصوم هو أصل حالة القلب، حالته الدائمة، بها يتحقق كمال الطاعة لله والخضوع والإجلال له –سبحانه–.

وأخشى أن يُخيّل للفقراء الدنيا ويُصور لهم أنّ هؤلاء مُغيبون، يعيشون منعزلين في محاربهم وظلمتها، فلا أرى أظلمَ من الدنيا على أهلها!

أو أنّهم فجأة وجدوا أنفسهم على تلك الحالةِ أو ولدوا عليها..فلايقرصهم جوعٌ، ولايحسون بالعطش، ويضرهم حرٌ..وأنّهم ورِثوا السر، فأدركوه وترقّوا في درجاته..

بل هم يَحيَون الحياة الحق، كما أرادها الله، لاكما يريد الهوى والشّيطان! بذلوا وسعَهم وجاهدوا أنفسَهم وأصلحوا سريرتَهم فصلُح علنهم، واستعانوا بالله وسألوه من فضله الواسع قبل كلّ شيء وبعده..

فليس كلُّ من أدرك السر وعَلِمه عاشه، وحيا به، وارتقى في درجاته..

وإلّا فإنّ صومَ العموم صحيحٌ يُبرئ الذمّةَ ويُسقطُ الفرضَ، لكنّه ناقصُ الأجر ويُخشى عليه من عدمِ القَبول. فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ صائمٍ ليس له من صيامِه إلا الجوع، ورُبَّ قائمٍ ليس له من قيامِه إلا السهر»

وقال رسولُ الله ﷺ: «والصِّيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان يومُ صومِ أحدِكم فلا يرفُثْ يَوْمَئِذٍ ولا يَسْخَبْ، فإن سَابَّهُ أَحَدٌ أَو قَاتَلَهُ، فليقلْ: إِنِّي امْرُؤٌصائمٌ. والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لخُلوفُ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللهِ،يَومَ القِيَامَةِ من ريحِ المسك.و للصائمِ فرحتانِ يَفْرَحُهُمَا: إذا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطرِه، وإِذَا لَقِيَ ربَّه فَرِحَ بصومِه» أخرجه مسلم

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لم يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ به والجهل، فليسَ للهِ حاجةٌ بأن يَدَعَ طعامَه وشرابَه»

وفي الأثرعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:

«إذا صمتَ فليصم سمعُك وبصرُك ولسانُك عن الكذب والمحارم، ودَع أذى الجار، وليكن عليك وقارٌ وسكينة، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء»

ولسنا في مقامِ التّقليل من صيام البطن عن الأكل والشرب فالدّراسات العلميّة في إثبات عِظم الفائدة وتأثيره الكبير على الصّحة موجودة وهو مايبين عظيم حكمته في تشريعه –سبحانه– ولكن نهدف إلى أن نلفت العباد إلى فضلٍ وجنةٍ في هذه الدنيا، وحقيقة هذه العبادة الجليلة، وأن هناك خبايا وكنوز لايدركها ويحصل عليها إلا من سعى إليها حقاً وصدقَ في ذلك ربَه وابتغى وجهَه الكريم –سبحانه–.

أوتبقى تحصرُ الصّيامَ في الجوعِ والعطش، أم تلحق بالرّكب وتُحلّق في رحاب عبوديّة الله سبحانه!

"بعد المغرب"

الأصل في حياة العبد أنه ينتقل من عبادة إلى عبادة، وإذا ما فرغ من واحدة انصب على أخرى لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (سورة الشرح: ٧–٨).

لأنه ما وُجد على هذه الدنيا إلا لعبادة الله –سبحانه–، ويتجلى هذا في قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)

وكذلك هو الحال في الصيام عامةً، وفي رمضان خاصةً، فليس آذان المغرب إلا إذن من الله لنا لنعود إلى ما تركناه نهارًا تعبدًا وطاعة له من الأكل والشرب، حتى نتقوى به للقيام والطاعات وصيام اليوم الموالي، أي أن آذان المغرب ليس نهاية العبادة إنما هو إنتقال من عبادة إلى عبادة غيرها.

والآذان مع كل أسراره الجميلة يصبح في رمضان نداء شكر لأن بلغنا الله سبحانه هذا الشهر الكريم، ووفقنا لصيام هذا اليوم، ومنَّا علينا بنعمة الإفطار.

لكن المفارقة المؤلمة في واقعنا اليوم عند الكثير، فإن الآذان ماهو إلا مجرّد صوتٍ يعلن انتهاء الامتناع عن الطعام والشراب، لصيام لم يتجاوز حدود المعدة، ولا هو ترك أثرًا

في السلوك ولا في الاختيارات ولا في ترتيب الشهوات، وإنما أدّى صورته وغاب جوهره، وحضر فيه الجسد وغاب القلب، وإذا ماغاب هذا الأخير غابت الفائدة.

وأخشى أن حتى ذلك الترك المؤقت ماكان لوجه الله وإنما للعادة الاجتماعية، في لحظة الإفطار، التي شُرعت لتكون مقام شكر وانكسار لله سبحانه واعتراف بالنعمة وصورة من أجل صور العبودية، تتحول العبادة عند الكثير إلى حالة نهم وانتقام، ويغدو الطعام غاية لا وسيلة، أساسًا لا حاجة، وهذا خلل عويص أن يصبح السبب المُعين غاية في ذاته، فتُكسر الشهوة نهارًا لا لتُهذَّب، بل لتُطلق ليلًا بلا ضابط، في مفارقة تُفرغ الصيام من حكمته العميقة.

بل وإن الأعجب أن يفتتح الإفطار بالتقليب في شاشة التلفاز بحثًا عن مسلسل هذا الموسم الرمضاني، أو برامج فكاهية منحطة أو كاميرات خفية خاوية،

فأين الصيام وأين أثره؟

وما معنى صيام يكسر الشهوة نهارًا، ليطلقها بلا زمام ليلًا؟

والأغاني والموسيقى التي تُستنكر نهارًا فجأة بعد المغرب تصبح جائزة لا بأس بها، من أحلها؟ الهوى، فتفتح الشاشات، وتعلو الأصوات، وتسقط الأقنعة، فقد رفع الحظر.

ثم أمر نسمع ونرى ونقرأ له مايشيب له الرأس، إلى أصحاب تلك العلاقات التي – تحترم– الصيام نهارًا، وتعود للحياة بعد المغرب، رسائل، مكالمات، وخلوات رقمية لا يراها الناس ولكن يراه الله سبحانه، وربما لقاءات بعد صلاة التراويح –وليست مبالغة للأسف واقع معتاد، وصلاة التراويح غالبًا الحجة– لكنها تُرهق القلب، وتُميته، وتقتل الحياة والحياء فيه، علاقات محرمة، ارتباط غير شرعي، ومشاريع زنا، هذه مسمياتها الحقيقية.

ومن لم يصم قلبه، خان صيام جوارحه.

والله إنه يحز في القلب حزًا أن يُتكلم عن هذه المحرمات وهذه الانتهاكات وكأن الله سبحانه لم ينه عنها إلا في رمضان، بل فقط في نهاره، وإن كانت في الحقيقة معاصي وذنوب وربما سيئات جارية.

وإليك الأدلة التالية التي وردت في مرجعيتنا الحق:

- أما عن النهم في الطعام والإسراف فيه، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)

قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

- وأما عن المسلسلات التي يردد الجميع على أنها غير محرمة، قد لا تحرم لذاتها ولكنها محرمة لما فيها من تبرج واختلاط ودعوة للفاحشة وبث السموم بين الناس،

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (النور: ٣٠)

قال رسول الله –ﷺ–: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ".

- أما عن الموسيقى والأغاني الهابطة،

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (لقمان: ٦)

قول ابن مسعود "والله الذي لا إله إلا هو، إنه الغناء" أقسم بها ثلاثاً، مفسر بها الآية.

وقال ابن القيم –رحمه الله–:

لهو الحديث هو الغناء، وهذا تفسير الصحابة وهو أولى من غيره.

قال ﷺ: «ليكوننَّ من أمتي أقوامٌ يستحلّون الحِرَ والحريرَ والخمرَ والمعازف» (رواه البخاري تعليقًا مجزومًا به).

- أما عن مشاريع الزنا، والارتباطات التي ما أنزل الله بها من سلطان،

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢)

قال رسولُ الله –ﷺ–: «كُتِبَ على ابنِ آدمَ نصيبُهُ من الزِّنا مُدركٌ ذلك لا محالة؛ فالعينانِ زِناهُما النَّظر، والأذنانِ زِناهُما الاستماع، واللِّسانُ زِناهُ الكلام، واليدُ زِناها البطش، والرِّجلُ زِناها الخُطى، والقلبُ يهوى ويتمنّى، ويُصدِّقُ ذلك الفرجُ أو يُكذِّبُه»

(متفق عليه: رواه البخاري ومسلم)

وإنني لأخشى أن تكون ممن مر عليه الغيث، وبقي قلبه قفرًا، وتكون ممن عني بقول الرسول ﷺ:

«رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ،

ورَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك رمضانَ ثم انسلخَ قبل أن يُغفَرَ له،

ورَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك عنده أبواهُ الكِبَرَ أحدُهما أو كلاهما فلم يُدخِلاه الجنة»

(رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني)

وإن لم تؤمن بكل ما ورد في هذه الأدلة وما عزمت على الترك فأقول ما قاله الله سبحانه في كاتبه العزيز: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(المرسلات: ٥٠)

الاستعداد الحقيقيّ لرمضان

ما إن يقبلَ رجبٌ ويتبعه شبعان، حتى يكثرَ الكلامُ عن الاستعدادِ لرمضانَ والتجهيز له، ولكن مانراه اليومَ من تجهيز وعدة، يثيرُ الحيرة في النّفس.. فهل هذا هو الاستعداد الحقيقيّ لرمضان؟!

حيثُ نلمسُ اليوم طمساً للجوهر وتغليبٍ للجانب الماديّ على حساب النّفس والرّوح، فتحولت التّحضيرات إلى موضةٍ استهلاكيّة؛ من شراءِ كميةٍ كبيرة للطعام، والحلويات والمشروبات، وأغلبها ضرّها أكثر من نفعها.. وهذا يوقعُنا في الإسراف الذي حذرنا الله منه في قوله عز وجل :«وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (سورة الأعراف: ٣١). بالإضافة إلى أنّه يزيد من تشتت النّفس عن الغايةِ الحقيقية لهذا الشهر الكريم. وكما قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطنه، بحسبِ ابنِ آدمَ أُكلاتٌ يُقِمْنَ صُلبَه، فإن كان لا محالةَ فثُلُثٌ لطعامه، وثُلُثٌ لشرابه، وثُلُثٌ لنَفَسِه». فمنظر القمامات مملوءة بالخبز والأكل الفاضل يحز في القلب.. والله المستعان.

وبدل من التكافل الإجتماعيّ، أصبح هناك تنافس اجتماعي على الموائد الكبيرة، والتّجهيزات الباهظة..

فضلاً عن قائمة مسلسلات الموسم الرّمضاني! وبرامج التّبرج والاختلاط والفسوق..

والحق هو أنّ الاستعداد الحقيقي ليس هكذا قطعاً؛ فإنما يكون بتهيئة القلوب..القلوب..القلوب.. وذلك بتطهير النّفوس، وزيادة العبادات ومراجعة النّفس قبلَ حلوله. ويسبق ذلك الإخلاص في النيّة، والعزم على الصّيام والقيام، فتتجهز القلوب والجوارح لاستقبال رحمة الله.

وكان يسمى شهر شعبان بشهر القرّاء لكثرة مايُقرأ القرآن فيه، ولاأنجع من علاج أدواء القلب من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس: ٥٧) كما أنّه خيرُ معلمٍ ومروض لهذه النّفس.

كما يُحرص على تدريب النفس على الصبر لضبط الشهوات. وذلك بالإقلاع عن المعاصي والذنوب والندم عليها والتوبة منها «وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» سورة [النور ٣١]. وتخفيف المباحات وخاصة النوم، وملأ الوقت بماهو أنفع للقلب! والحرص على الالتزام بالفرائض والاستزادة من النوافل. بالإضافة إلى مساعدة أهل البيت في تجهيز الإفطار وإخلاص النية له سبحانه.

ولا يتم هذا إلا بالاستعانة به والتّوكل عليه سبحانه، والحرص على طلب رضاه في كل صغيرة وكبيرة، واستشعار مراقبته في السّر والعلن، والتماس رحماته وفي تفاصيل ودقائق اليوم، والإكثار من الدعاء..عسى أن نكتبَ ممن عُتقت رقابهم من النّار.

توبةٌ رمضانيّة!

التوبةُ لغةً: من الفعلِ تابَ أي عادَ بعدَ انصرافٍ.

وشرعاً: الرّجوعُ إلى اللهِ تعالى بترك الذّنب، والنّدمِ عليه، والعزمِ الصادقِ على عدمِ العود إليه، ابتغاءَ مرضاةِ الله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]

التوبة؛ هي رجوعُ العبدِ بقلبه المرهقِ المشتاق إلى الله تعالى رجوعَ إنابةٍ وتعظيم، بترك ما حرّم، والنّدمِ على ما سلف من التقصير، والعزمِ الجازم على لزوم الاستقامة، ابتغاءَ مرضاته، وثقةً بسعة عفوه، واستدراكًا لما فات من العمر بالطّاعةِ والإحسان فيما تبقى. رجوعٌ يُعيد للروح همتها وإقبالها على الخيرات، ويُعْرضها ويُنَفرها من المنكراتِ لترتفعَ درجات القرب من خالقها ومولاها سبحانه جلّ في علاه.

ويأتي رمضان ليفتحَ أبوابَ الخير على مصرعيها، وتتجلى فيه عظمةُ الرّحمةِ الإلهية، فتُرقق القلوبَ وتَحن للعودة وتُبصر النور، ففيه تُعتق الرقابُ لقول رسول الله ﷺ: «إنّ لله عند كل فطر عتقاء وذلك في كل ليلة»، وتضاعفُ الحسنات وتُكفر السّيئات؛ حيثُ قال ﷺ: «الصلواتُ الخمس، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان، مُكفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائر» رواه مسلم

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ دخل عليه رمضانُ ثم انسلخ قبل أن يُغفَر له» رواه الترمذي وصححه الألباني

قال رسول الله ﷺ: «مَن صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه» متفق عليه.

وعليه يُوجه خطابٌ إلى صنفين من النّاس؛

- الأول: المشككين في توبة المقبلين على الله في رمضان خاصة، الذين يكونون كأشواك وعقبات في طريق التّوبة، ويصدّون عنها.

التّوبة في رمضان ليست نفاقاً، فهي قرار قلبٍ لايعلم صدقه إلا الله، وللنّفاق علامات بيّنها الله في القرآن. وإلا فإن النّوايا وماتكنه القلوب ودافع التّوبة في رمضان يتولاها الله وهو عليمٌ بذات الصدور.

ومن هؤلاء الذين سَلِموا من النفاق وأمنوا أنفسهم وتوجهوا ببنانهم لاتهام الناس ونعتها به؟!

رضي الله عن أناسٍ بُشروا بالجنة ورغم ذلك كانوا يخشون النّفاق والعُجب والرّياء من أن ينكت قلوبهم.

فرمضان فرصةٌ عظيمةٌ للإقبال على الله ومراجعة النّفس والإكثار من الخيرات، ولايُحرمُها إلا مغبون.

- الثاني: إلى أولئك الذين يسعون لاستدراك ماتبقى من العمر، والعودة إلى خالقهم قبل فوات الأوان.. باب التوبة مفتوح، ورمضان شهر عظيم، وربنا دائما وأبداً غفور رحيم كريم.

النّفس البشريّة جُبلت على الخطأ، وعليه فهي في جهاد وصراع دائم..إلى أن يأذن الله وينتصر الحق –نسأل الله أن يختم لنا بخير الأعمال وأفضلها وأجلها عنده– والله يحب التوابين المتطهرين من ذنوبهم وخطاياهم، والأصل في الإنسان أنّه كلما أخطأ تاب وليس فقط في رمضان.. ولكن إن كان العبدُ في غفلة عن الحقّ وأعمت المعاصي بصيرته، وأتى نور رمضان المبارك فأنارها له.. فليقبل ولايتوانى ولايترك للشيطان فرصة للوسوسة والتّشكيك. ولايقنط من رحمة الله فمهما بلغت الذنوب فهي لاتعجز الله سبحانه وتعالى من أن يغفرها ويعفو عنه.

ولايلتفت المقبل على الله إلى تقصيره يائسا من نفسه فهو حاصل لامحالة، وإنما يسعى لتقويمها وترويضها.. ولاييأس من كثرة العثرات، فالطريق ليس محفوفاً بالورد، ولكن تَحُفه رحمته جلّ في علاه فلايخفى عليه شيء سبحانه، وإذاما صدق القلب في الإقبال عليه أكرمه وأغدق عليه الخير والنّعم وفتح عليه أبواب فضلٍ عظيمة –وليترفع المؤمن عن سفاسف الدنيا ومالاينفعه في آخرته وليكن صاحب فكر واسع وقلب متيقن واثق بربه، ولايحصر الرّزق في المال والجاه والماديّات التي أعمت البصائر وأثنتها عن الغايات الحقيقة والأهداف السّامية التي تليق بالمؤمن الموحد والذي جعل من دنياه مزرعة للآخرة "دار القرار" ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ سورة غافر / ٣٩–.

ولا إلى كلام النّاس، فهم لم يرضوا عن خالقهم، فماذا تراهم يفعلون بعبيده؟!

وليعلم العبد أنّ التّوبة النّصوح الصّادقة، هي حقاً نقطة تحولٍ كبيرة في حياته، ولكن لن يتغير كلّ شيء بعدها فجأة، ويُقطع الوصال مع الهوى لتتصل بالحق والفضيلة فجأة، وإنّما هو طريقٌ طويل، وجهاد قد ينتهي عمر العبد ولاينتهي جهاده.. وطبعا هذا لايدعو إلى الإحجام والإدبار، بل كلما أخطأ تاب وأناب واستغفر وعاد إلى التّواب سبحانه وكما قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حتّى تَمَلُّوا)، (وخيرُ الأعمالِ أدومُها وإن قلَّ».

كما يجبُ التّخلص من مبدأ إما أقصى اليمين أو أقصى اليسار، وإنّما يستعينُ العبدُ بربه ومولاه سبحانه ويَصدُق في الإقبال عليه ويسعى بماأتاه اللهُ من قوةٍ ويُسدد ويُقارب فكما جاء في الحديث؛

قال رسول الله ﷺ:(سَدِّدُوا وقارِبُوا وأَبْشِرُوا، فإنَّه لا يُدْخِلُ أحَدًا الجَنَّةَ عَمَلُهُ قالوا: ولا أنْتَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ولا أنا، إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بمَغْفِرَةٍ ورَحْمَةٍ)

وفي رواية:

«سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ والقَصدَ القَصدَ تبلُغوا ».

رواه البخاري ومسلم.

ليالي رمضان وصلاة التراويح

صلاة التراويح: عبق رمضان المتجدد، وسر من أسراره الجميلة، فيها تسمو النفوس إلى السماء متجاوزة ثقل الأرض، وتتلاحم القلوب مع نور القرآن، وتتفتح الأرواح كما تتفتح الزهور على ضوء الفجر... فينشرح الصدر وتطمئن النفس.

الأصل في تسميتها: أنها جمع كلمة ترويحة، مشتقة من كلمة راحة،
حيث جاء في لسان العرب أنه إنما سُمِّيت صلاة التراويح؛ لأنهم كانوا يستريحون بين كل تسليمتين، أي أربع ركعات، وذلك لما كانوا يطيلون من القيام ويكثرون من قراءة القرآن فيها، فقد ثبت عن السائب بن يزيد –رضي الله عنه– أنه قال: «كانوا يقومون على عهد عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– في شهر رمضان بعشرين ركعة».
وروي أنهم كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام.

فهي صلاة لا تُؤدَّى على عجل، بل تُنسَج بين ركعاتها أنفاس من الراحة، كأن القلب يتجهز بين كل قيام وقيام لما سيُلقى عليه من القرآن وإلى مرحلة تطهير وتزكية أخرى، فليست تعبًا للجسد، بل إراحة للروح، وليست طولًا مُرهقًا، بل سكونًا يُجدِّد الشوق إلى الوقوف بين يدي الله سبحانه.
وصلاة التراويح سنة مؤكدة، ثبتت عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأدلة مشروعيتها فيمايلي:

عن أبي هريرة –ﷺ– أن رسول الله –ﷺ– قال: «مَن قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه» (متفق عليه: البخاري ومسلم)

حيث قال العلماء أن قيام رمضان هنا يشمل صلاة التراويح، لأنها الصلاة الخاصة بقيام ليالي رمضان.

كما جاء عن عائشة ﷺ قالت:

«صَلَّى رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ في المسجد، فصلَّى بصلاتِه ناسٌ، ثم صلَّى من القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسولُ الله ﷺ، فلما أصبح قال:

قد رأيتُ الذي صنعتم، فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيتُ أن تُفرضَ عليكم». (رواه البخاري ومسلم)

فلم يتركها كراهة لها، بل رحمة بأمته عليه افضل الصلاة وأزكى السلام.

وجاء عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال: «خرجتُ مع عمرَ بن الخطابِ –رضيَ اللهُ عنه– ليلةً في رمضانَ إلى المسجدِ، فإذا الناسُ أوزاعٌ متفرّقون، يصلّي الرجلُ لنفسِه، ويصلّي الرجلُ فيصلّي بصلاتِه الرهطُ، فقال عمرُ:

إني أرى لو جمعتُ هؤلاء على قارئٍ واحدٍ لكان أمثلَ، ثم عزم فجمعهم على أُبَيِّ بن كعبٍ، ثم خرجتُ معه ليلةً أخرى والناسُ يصلُّون بصلاةِ قارئهم، فقال عمرُ: نِعْمَ

البدعةُ هذه، والتي ينامون عنها أفضلُ من التي يقومون –يريد آخر الليل– وكان الناسُ يقومون أوَّله»

والبدعة: هنا لغوية لاشرعية فالأصل أنها ثبتت عن النبي –ﷺ–، وإنما لإحياء أمرٍ مشروع تُرك خوف الفرض ثم عاد بزوال علّته، كما أنه ليس المقصود ذم التراويح إنما بيان أن القيام آخر الليل أعظم درجة وأجرًا.

ومع سحر هذه العبادة الجليلة، وأسرارها التي كثيرًا ماتعاش وتُحيى في القلوب والأرواح ولا يمكن وصفها، وجب التنبيه لأمور:

أولًا: صلاة المرأة في المسجد مباحة جائزة لقوله ﷺ: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله» (متفق عليه)

ولكن الأفضل والأحسن والأستر والآمن لها أن تصلي في بيتها، حيث ورد عن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «صلاةُ المرأةِ في بيتِها أفضلُ من صلاتِها في حُجرتِها،

وصلاةُ المرأةِ في حُجرتِها أفضلُ من صلاتِها في دارِها»

وعن أم حميد الساعدية ﷺ

أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقالت:

يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك.

فقال ﷺ: «قد علمتِ أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتُكِ في بيتكِ خيرٌ لكِ من صلاتكِ في حجرتكِ، وصلاتُكِ في حجرتكِ خيرٌ لكِ من صلاتكِ في دارِكِ، وصلاتُكِ

في دارِكِ خيرٌ لكِ من صلاتكِ في مسجد قومكِ، وصلاتُكِ في مسجد قومكِ خيرٌ لكِ من صلاتكِ في مسجدي»

وبالتالي الأفضل للمرأة الصلاة في البيت، لكن يجوز لها الخروج طبعًا إذا أمنت الفتنة على نفسها.

فما بالنا اليوم نرى نساءً يخرجن للصلاة بمظهر فاتن من عباءات، وطقوم صلاة مزينة، وعطور، والأصوات مرتفعة، وضحك وتغنج في الكلام، وكأنها تنبش عن الفتنة حيثما كانت! والله المستعان.

ثانيًا: هناك أولويات، فلايترك الفرض لأجل السنة –إن كان القلب حقًا صادقًا في تطبيق السنة– ونشير هنا إلى بعض الشابات من يقمن إلى المسجد مع آخر لقمة، تاركة والدتها تتخبط مع الأعمال والأشغال التي عليها، وترفض مساعدتها متحججة بالخروج لصلاة التراويح فتحزنها وتغضبها عليها، فطاعة الوالدة ومساعدتها وبرها فرض لايناقش ويعلمه الصغير والكبير، فعن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما–، قال رسول الله ﷺ:

«رضا الله في رضا الوالد، وسخط الله في سخط الوالد»

و عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله: أي العمل أحب إلى الله؟

قال: «الصلاة على وقتها»

قال: ثم أي؟

قال: «بر الوالدين»

قال: ثم أي؟

قال: «الجهاد في سبيل الله»

فبر الوالدين وطاعتها في المعروف مقدم على الجهاد في سبيله سبحانه ولايخفى على أحد منا فضل الجهاد في سبيله.

ثالثًا: افتتان النساء وخاصة الشابات، بأصوات القراء والتركيز على الصوت وبناء عالم وهمي على أساس خاطرة شيطانية وتجاوز الحدود، عوضًا عن تدبر القرآن واستحضار القلب وتزكيته، بل وقد يصل الأمر بتغيير مسجد الصلاة لأجل عدم إعجابها بصوت القارئ، والله المستعان.

فهذا والله أمر خطير، وباب فتنة عظيم، والعاقلة من سدت الباب وما تركت قلبها يشاورها في فتحه، فإنها إن فتحت تلج، تلج وبقوة وإندفاع.

فاتقوا الله إماء الله، صلوا في بيوتكن هو آمن لكن بل وأعظم أجرًا.

رابعًا: تجنب الطرق التي يمشي فيها الرجال ويكثروا فيها، والإسراع للبيت،

وإن كان الأصل أن تخرج النساء ثم يخرج الرجال بعدهم، وليس أن يسارعوا على الأبواب مع آخر تسليمة، فيحدث الإختلاط وتشتعل الفتنة.

هذا وقائمة المخالفات لازالت تطول، والله المستعان.

سرُ الاقترانِ بين رمضانَ والقرآنِ

إنّ اقتران القرآن برمضان ليس محضَ صدفةٍ، فكما لكلّ تفصيلة في خلق الله سبحانه حكمة، ففي هذا الاقتران العظيم حكمة جليلة من الله تعالى.

يقول الله عز وجل: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» (البقرة: ١٨٥)

فرمضان ليس شهراً للصيام فقط، وما خُففت الأجسادُ من ثقل الأكل وأُفرغت وخُليت إلا لتُملأ بكلام الله سبحانه، وتُحلّى بآياته، وتُنار بنوره العظيم.

فهذا القرآن إنّما هو روحُ رمضان الذي بشهوده الطويلة ولياليه المباركة، هو الوقت الذي يكون فيه القلب أكثر استعدادًا لتلقي نور القرآن، فتهدأ النّفس ويصفو الباطنُ، وعليه تستجيب القلوب لنداء الحق.

وقد جاء في الأثر عن عبدالله بن مسعود رضي اللهعنه:

«إنّ هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم» فينهل كلٌ على حسب إقباله، وصدقه، وتخلية قلبه ووقته من التّفاهات والسّفاسف فضلاً عن المحرمات، ومن حُرِم هذه المأدُبة فقد حُرم الخير، ولن ترويه ولن تُشبعه أيّ مأدبة أخرى.

ولا يقصد بالقرآن مجرد القراءة وإنّما حُسن الفهم والتّدبر وقراءة التّفسير والعمل بما تعلمت منه.

ونُذكّر بفضله بماجاء في القرآن والسنة؛

قال النبي ﷺ:

«اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه» (رواه مسلم)

قال النبي ﷺ:

«من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف>> (رواه الترمذي)

قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (مُحَمَّد: ٢٤)

قال النبي ﷺ:

«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجّة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأه مثل التمرة لاريح لها وطعمها حلو»

هذا وفي رمضان تتضاعف الأجور والحسنات والله أكرم الأكرمين.

إنّ رمضان والقرآن مثل جناحين يأخذان بالمؤمن إلى رضوان ربه سبحانه. فبعد أن يعقد القلب النيّة بصيام اليوم، تنصت الجوارح وتستجيب لأوامره، وهنا يفرغ البدن.. ومع مشقة الصّيام وحرمة الأخذ من المآدب المعتادة، تبقى مأدبة الله، المأدبة التي تُعنى بالقلب والروح ، فيأخذان منها ويغوصان في تفاصيلها، ويحلقان مع سمو معانيها، ويقبلان عليها إقبال الضمآن في الصحراء على مياه الواحة العذبة. وعندها تتحقق غاية من أسمى غايات صيام رمضان. ويكون بمثابة محطة لتصحيح المسار، وإعادة ترتيب أولويات الحياة، والابتعاد عن الغفلة والهوى، فتصبح النّفوس أكثر انصاتًا للحق، وأكثر استعدادًا لتلقي الهداية.

وعليه يُحرص أشد الحرص على أن ينهل المسلم مااستطاع من القرآن، وينشغل به أشد انشغال في حياته عامة وفي رمضان خاصّة، فلايُعقل أن تُخلى النفس مماأُبيح لها إلا أن تنشغل بماهو أعظم وأخير في الدارين، فتصاحبه وترافقه وتكثر مجالسته، قراءة واستماعاً وتدبراً... وهنا تتحد الجوارح والقلب لتسوقَ صاحبها إلى ربه وخالقه سبحانه..

العشر الأواخر والجوهرة المكنونة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

(إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ (١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ (٥)) [سورة القدر].

وما أدراك ما ليلة القدر؟ ليلةٌ من خيرِ ليالي السَّنة، ليلةٌ عظيمةٌ الشَّأن عند الله.

أمَّا عن أصل تسميتها، فإنّما سمّيتْ كذلك؛ لأنَّ الله يقدِّر فيها أقدار العباد للعامِ المقبل، فكما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عبَّاسٍ –رضي الله عنهما– قال: «قدَّر الله فيها أقدار عباده للسَّنة المقبلة».

وليلة القدر ليستْ ليلة السَّابع والعشرين من رمضان كما هو منتشرٌ بكثرةٍ، وإنَّما أخفاها الله –جلَّ جلاله– في العشر الأواخر، فقال النَّبي ﷺ: «تحرُّوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان.» (رواه البخاري ومسلم)، حتَّى تلتمس تلك اللَّيالي كلُّها، ويظهر صدق المحبِّ لله وإخلاصه وحرصه على الطَّاعة دون حسابٍ مسبقٍ.

كما أنَّ في إخفائها رحمةٌ من الله تعالى، فلو كانتْ في يومٍ محدَّدٍ، وفات أحدهم إحياؤها؛ لربُّما أُصِيب بالإحباط وتسرَّب إليه اليأس لضياعها، فبإخفائها يُقبل العبد الخاضع المتضرِّع الفقير إلى ربّه الغنيّ الحميد سبحانه في كلِّ تلك اللَّيالي العظيمة، ومن أجمل ماقيل عن الحكمة من هذه اللَّيلة المباركة، أنَّ أمَّة محمَّد –صلَّى الله عليه وسلَّم–

لا يعيشون لمئات السِّنين كما سبقهم من الأُمَم؛ فجعل الله هذه اللَّيلة ليكثر فيها العبد من العمل الصَّالح، والذِّكر والقيام والقرآن والدُّعاء، فيدرك الكثير في وقتٍ قصيرٍ، يل إنِّه لقصر الزَّمن فالحرُّ منَّا أنْ نستحضر قلوبنا فتبقى يقظةً حيَّةً فلا تفتر ولا تملُّ ولا تستثقل العبادة لطول الوقت، وهذا من لُطفه بنا سبحانه.

بالإضافة أنَّها لرحمةٌ عظيمةٌ جدًا أنْ تكون هذه اللَّيلة في العشر الأواخر من رمضان؛ فيُجهِّز العبد قلبه لها في العشرين الأولى، ويعتاد الجسد الصِّيام والقيام، ويخلى القلب من المحرَّمات والمشاغل الدُّنيويَّة ويحلى بالقرآن والذِّكر؛ ليلقى هذه اللَّيلة ويدركها وهو على أتمِّ استعدادٍ، ويجتهدُ ويحرص على ألَّا تفوته، فمن أدركها فله خيرٌ عظيمٌ.

فعن أبي هريرة –رضي الله عنه–، قال رسول الله ﷺ: «مَن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه.» (البخاري ومسلم)، كما جاء عن أمِّ المؤمنين عائشةُ –رضي الله عنها– أنَّها قالت: «قلت: يا رسول الله، إذا علمتُ أيُّ ليلة القدر، ماذا أقول فيها؟ قال: قولي: اللَّهم إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعف عنِّي.» (رواه الترمذي)، كما يقول ﷺ: «خيركم من أدرك ليلة القدر وأدرك فضلها وعمل فيها خيرًا.»، ومن السُّنن العظيمة في العشر الأواخر كلِّها هي الاعتكاف ويكون ذلك بالتَّفرُّغ للعبادة في المسجد مثلًا، والابتعاد عن كلِّ مشاغل الدُّنيا وكان نبيُّنا –صلَّى الله عليه وسلَّم– وأسوتنا الحسنة يحرص على ذلك، فعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: «كان النَّبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان حتَّى توفَّاه الله.» (رواه البخاري ومسلم).

وممَّا جاء في بيان علاماتها، حديث النَّبي ﷺ: «اللَّيل صافٍ لا حرٌ ولا بردٌ شديدٌ، والشَّمس تطلع صافيةً لا شعاعَ لها.»

إنَّ هذه اللَّيالي المباركة، تحمل في طيَّاتها، فرصة النَّجاة والغفران، وتحرير النُّفوس من أسرِ العِصيان، وعتق الرِّقاب من النِّيران، وطلب رضا الرَّحمان.

الختام

قال الرَّسول ﷺ: «صوموا تصِحُّوا؛ فإنَّ للصَّوم سحرًا لا يدركه إلَّا الصَّائم» (رواه ابن ماجه).

هو كذلك لا يدركه إلَّا الصَّائم، فمهما زخرفتَ الكلام، وزيَّنته وبسَّطته، يبقى للتَّجربة وأنْ تحيي هذا الصِّيام وهذا الشَّهر المبارك، طعمًا خاصًا، يُعاش ولا يُوصَف؛ فأسراره عديدةٌ وسحره فريدٌ وربُّبا جليلٌ حكيمٌ.

وعليه، ليكثر العبد من الدُّعاء؛ لأنْ يبلغه ربه رمضان، وإنْ كان يفصُله عنه ساعاتٌ قلائلٌ، فإنّما بلوغه فضلٌ ومنَّةٌ ونعمةٌ عظيمةٌ من الله فليستشعر ويستحضر هذا المعنى والنِّعمة في قلبه.

ولابدَّ من التَّنبيه أنَّه: لا يمكن الانتقال فجأةً من عبدٍ يلتزم بفروضه وبالكاد يلتزم ورد قرآنه، أو ربُّما يجاهد نفسه حتَّى في هذا، إلى أداء كلِّ النَّوافل، وصلاة التَّراويح، وقيام في الثُّلث الأخير من اللَّيل، وأوراد قرآنٍ وذكرٍ كثيرةٍ؛ فما يلبث حتَّى تفتر نفسه، بل هناك من يستثقل هذا بمجرَّد رسمه للجدول... فليذكر الواحد منَّا قول النَّبي –صلَّى الله عليه وسلَّم: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإنْ قلَّ»، ولا يستحقر من المعروف شيئًا؛ فالتَّحدِّي كلُّه في الاستمراريَّة، لا نريد جداولَ عامرةً بالعبادات في رمضان، وعندما يمضي تنقلب الأمور وتعود النَّفس إلى سابق عهدها مع الشَّهوات والعادات الذَّميمة،

وعليه يُحرص على قطع المنكرات والمعاصي، والإقلاع عنها، بالمقابل التَّدرُّج في الطَّاعات، والتَّسديد والمقاربة، وسؤال الله العَون والبركة في سائر الأيَّام، واستحضار القلب وصدق الدُّعاء والطَّلب.

وإذا ماشَهِد هلال رمضان فليقل كما كان يقول النَّبي –صلَّى الله عليه وسلَّم–، فيما رُويَ عن طلحة بن عبيد الله –رضي الله عنه– قال:
«كان النَّبي ﷺ إذا رأى الهلال قال: اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالْيُمْنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالإِسْلَامِ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ».

كما أنَّه للصَّائم دعوةٌ لا تردُّ، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه–، قال النَّبي ﷺ: «إنَّ للصَّائم عند فطره دعوةً لا تردُّ» وليتذكَّر الصَّائم عند إفطاره ما جاء عن عبدالله بن عمر –رضي الله عنه–: «كان النَّبي ﷺ إذا أفطر قال: ذهب الظَّمأ، وابتلَّتْ العروق، وثبت الأجر إن شاء الله».

وإليكم مجموعة أدعيةٍ وردتْ في السُّنة:
اللَّهم لك الحمد، ملء السَّماوات وملء الأرض وملء ما شئتَ من شيءٍ بعد، أهلَ الثَّناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد، وكلُّنا لك عبدٌ، اللَّهم لك الحمد حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه.

اللَّهم أعِنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

اللَّهم تقبَّل منَّا إنَّك أنت السَّميع العليم، وتُب علينا إنَّك أنت التَّواب الرَّحيم.

اللَّهم إنّك عفوٌّ كريمٌ تحبُّ العفو فاعفُ عنَّا.

اللَّهم اغفر لنا ذنوبنا كلَّها: دقَّها وجلَّها، أوَّلها وآخرها، علانيّتها وسرَّها.

اللَّهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللَّهم أصلِح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا،

وأصلِح لنا دنيانا التي فيها معاشنا،

وأصلِح لنا آخرتنا التي إليها معادنا،

واجعل الحياة زيادةً لنا في كلِّ خيرٍ،

واجعل الموت راحةً لنا من كلِّ شرٍ.

اللَّهم إنَّا نسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغِنى.

اللَّهم إنَّا نسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيِّبًا، وعملًا متقبّلًا.

اللَّهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا،

وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا.

اللَّهم اقسم لنا من خشيتك ما يحُول بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنَّتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدُّنيا.

اللَّهم مصرِّف القلوب، صرِّف قلوبنا على طاعتك.

اللَّهم يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلوبنا على دينك.

اللَّهـم إنَّا نعـوذ بـك مـن زوال نعمتـك، وتحـوّل عافيتـك، وفجـاءة نقمتـك، وجميـع سخطك.

اللَّهم اغفر لنا ولوالدينا، وارحمهم كما ربَّونا صغارًا.

ربَّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمةَ، إنَّك أنت الوهَّاب. –من القرآن–

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ورمضانُ مباركٌ وكلُّ عامٍ وأنتم بخيرٍ!